الفصل الثامن

العصر الفاطمي

يمثل وصول الفاطميين إلى مصر (٣٥٨هـ) بالنسبة للبدو بداية فترة غنية ومفعمة بالأحداث الكبار في تاريخهم، فقد استدعي الكثير منهم إلى الحضور والنزول بالبلاد، أما بالنسبة للقبائل التي كانت موجودة فعلا عند وصول الفاطميين، فإن أسماءها لم في تاريخ تلك الحقبة، وذلك يرجع إلى أنهم كانوا يشكلون "الأغلبية الصامتة" في ذلك والوقت، وكانوا يتمتعون بهدوء على أرض مصر السخية، نظرا لما كانوا يتمتعون به من حظوة لدى سادة البلاد.

ولقد شاركت قبائل البدو فيما اعترض الفاطميين من صعوبات أولى في مصر، وكان قرامطة البحرين قد تحالفوا مع البدو وأغاروا على الشام عام (٢٥٧)هـ، ثم بدأوا يهاجمون مصر التي كان جنود جوهر الصقلي قد انتهوا من الاستيلاء عليها، وكان القرامطة قد ضموا إليهم أعداداً أخرى من البدو من قبائل بني هلال وبني سليم لكي يتمكنوا من مجابهة جيش جوهر، وكانت هذه القبائل معروفة بالشغب والنهب والسلب، واستمرارها في ممارسة هذه الأمور، ولم ينضم البدو إلى القرامطة إلا لكي تعم الفوضى، وتقابل جيش جوهر مع جيش القرامطة وحلفائهم من البدو، في موقعة عين شمس، وحاصر القرامطة وأعوانهم في مصر عدة شهور، ولكنهم هزموا ومضى الحسن الأعصم أثناء الليل على طريق القلزم حيث نهبت بنو عقيل وبنو طيئ كثيرا من سواده.

ووصل الخليفة المعز إلى القاهرة عام (٣٦٢)هـ، وبعد شهور من قيامه في الخلافة، عاد الحسن الأعصم القرمطي لمواجهة المدينة، وتمكنت طلائع جيشه من التوغل في الريف المصري إلى أطراف المحلة، ووصلت سرية منهم إلى أطراف الحوف، وذهب مبعوث القرامطة عبد الله ابن عبيد الله إلى الصعيد حيث وصل إلى

نواحي أسيوط وإخميم، واشتعلت نار الحرب في الوجهين: القبلي والبحري، وهنا فكر المعز في عزل القرامطة عن أتباعهم من البدو، مستخدما في ذلك الذهب الفاطمي فدفع الخليفة (١٠٠٠٠٠) دينار من الذهب إلى أمير بدو الشام، حسن بن الجراح الطائي (رئيس قبيلة بني طيئ)، ووعد بأكثر من ذلك إذا ما ترك فريقه لينهزم من الجيش الفاطمي، وهو ما حدث، فقد ترك البدو القرمطي وجيشه الذي انهزم في نهاية الأمر، وأبعد عن مصر في عام (٣٦٨)هـ، على يد الخليفة العزيز بالله بن المعز، وكانت قبائل "بني هلال وبني سليم" من ضمن هؤلاء البدو الذين افترقوا عن القرامطة، فسعى الخليفة الفاطمي بإرسالهم إلى الوجه القبلي لكي يأمن شرهم، ولكي يبعدهم عن أعوانهم السابقين، ولكن هؤلاء البدو من بني هلال وبني سليم صدر إليهم الأمر بالنزول على الساحل الشرقي للصعيد وألا يغادروه، ومنعوا من تعدية النيل إلى الشاطئ الغربي، واستمروا في السلب والنهب والاقتتال والتقاتل.

وفي عام (٣٧٨)هـ، وقع صدام بين بني سليم المقيمين في البحرين مع بني تغلب؛ وتمكن هؤلاء التغلبيون من طردهم وإجبارهم على ترك البلاد، وقد شجع الخليفة العزيز بالله قبائل بني سليم على الحضور إلى مصر، وقد استجابت بنو سليم استجابة سريعة إلى هذا النداء، حتى لم يبق منهم أحد ببلادهم الأصلية، وكانت الكراهية التي تعتمل في نفوس قبائل بني قرة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ) قد دفعت هؤلاء البدو إلى الانضمام إلى أبي ركوة، وكانت قبائل بني قرة تعيش في البحيرة، وكانت معروفة بقوتها وكثرتها وثرائها؛ وعندما أراد الخليفة الحاكم بأمر الله زيادة الجباية عليها، رفضت هذه القبائل أن تدفع هذه الزيادة، نتيجة ذلك أرسل الحاكم جنوده لطردهم؛ ووقعت مذبحة في الإسكندرية قتل فيها عدد كبير من بني قرة، ومنذ ذلك الوقت أضمرت بنو قرة حقدها الشديد ضد الخليفة الحاكم، ولم تتأخر في الانضمام إلى صفوف عدو الفاطميين، وأبي ركوة الذي زعم أنه من قرابة الأمويين في الأندلس، والذي كان يحاول عام (٣٩٧)هـ أن يقيم دولة أموية

في مصر، وكانت غالبية قوات جيش بأبي ركوة مكونة من البربر، من بني كتامة، كما توصل إلى إشراك بدو برقة والبحيرة بالإضافة إلى بني قرة، لكن الهزيمة لحقت بأبي ركوة، وهرب نحو الصعيد حيث اعترض طريقه زعيم قبائل بني ربيعة أبو المكارم هبة الله بن عبد الله بن علي، المعروف بالأهوج المطاع، الذي نجح في القبض عليه عندما كان يستعد للهرب نحو النوبة، ولقد كلفت عملية أبي ركوة هذه الحاكم بأمر الله غالياً، واعترافاً منه بالجميل نحو الأهوج المطاع خلع عليه لقب "كنز الدولة" وأصبحت قبائله تعرف بقبائل بني الكنز، وهو اللقب الذي حملته هذه القبائل باعتزاز طوال العصر الفاطمي وحتى عام (٥٧٠)هـ، وهو التاريخ الذي قتل فيه آخر رؤساء بني الكنز على يد الملك العادل أبي بكر أيوب، وبعد أن استمر الخليفة الحاكم بأمر الله في حكم مصر طوال ربع قرن، خرج ذات يوم من قصره محاطا بموكبين، أحدهما مكون من البدو، من بني سويد، وذهب الخليفة وحرسه إلى جبل المقطم، وهناك أمر الحاكم بأمر الله حرسه من البدو وغيرهم بالعودة، ودخل المغارات التي لم يره أحد يخرج منها أبدا، حدث هذا عام (٤١١)هـ، ودب النزاع بين الخليفة الظاهر وبين البدو عام(٤١٥)هـ، فقد أخبره عامله في الصعيد بأن قبائل بني هلال وكلاب وبني قرة وجهينة قد تجمعت في إقليمه وطلب مده بالمساعدات لمحاربة هؤلاء البدو، فأرسل إليه الخليفة الظاهر حشوداً مكونة من السود (العبيد) والباطنية، والبرقية، وغيرها، ثم قامت بنو هلال بصحبة بني سليم، بنهب وسلب الوجه القبلي وكل المنطقة حتى ميناء عيذاب، وقاموا بقطع الطرق في الصحراء وسرقة المسافرين أو القادمين من الواحات، بالرغم من الأمر الذي صدر إليهم بعدم تعدية النيل، ولكنهم تمكنوا من ذلك بمشاركة العكارمة، وزادت الشكوى التي وصلت إلى سمع اليازوري وزير المستنصر (٤٢٧هـ-٤٨٧هـ)، وكان على اليازوري أن يقوم من جهة أخرى بحل مشكلة العلاقات بين سيده الفاطمي وبين بني صنهاجة في المغرب، وفي هذا الصدد يذكر ابن ميسر اليازوري غضب لأن المعز بن باديس الصنهاجي لم يكتب إليه بعبارات تليق به كما كان الأمر في

السابق، فحث القبائل البدوية على تخريب إفريقية، وعندما علم ابن باديس بـــالأمر، أوقف كل المكاتبات من الدولة الفاطمية في مصر، وعندما قطعت العلاقات فعـــلا بين ابن باديس ومولاه بمصر في عام (٤٣٩هـــ-١٠٤٧م)، أرسل اليازوري هؤلاء الرجال إلى القيروان، حيث دمروا إفريقية، وكان على اليازوري في هذا الظـــرف أن يصلح الأمور بين بطنين من بني هلال، بني زغبة وبني ريـــاح، ثـــم مـــنحهم الهدايا والمكافآت وحثهم على الذهاب إلى إفريقية بهدف تدمير أعمـــال القيـــروان، ويعطينا التجاني صورة عن هذه الأحداث مليئة بالملاحظات الهامة التي تتعلق ببني هلال، يقول : إن اليازوري لم يكن في حاجة إلى إعطاء الأمـــر للبـــدو لاكتـــساح إفريقية، لأنه كان يعلم تماما أن بني هلال وبني سليم سيقومان بهذه المهمة بطبيعة الحال، ويضيف التجاني بأن هؤلاء القوم قد رفضوا تعدية النيل قبل أن يحصل كل منهم على دينار وقطعة من الفرو، وهو ما حدث فعلا، وبذا ارتحل (٣٠٠٠) بدوي من قبائل بني هلال وبني سليم إلي إفريقية.

والمعروف أن جحافل الهلالية قد اكتسحت برقة وهي فـــي طريقهـــا إلـــي إفريقية وتركتها بعد ذلك لبني سليم الذين خربوها تخريبا، وعنـــد وصـــولهم إلـــى إفريقية التي قدمها لهم اليازوري كهدية، وبعد أن رضوا بحياتهم الجديدة، أرســـلوا في طلب أهلهم وعشيرتهم ممن ظلوا في مصر لكي يلحقوا بهم، ويستطرد التجاني في ذلك قائلاً: ولكن اليازوري هذه المرة، لم يتركهم يرحلون دون أن يـــدفع لكـــل منهم ديناراً أو قطعة من الفرو، وبهذه الطريقة حصل اليازوري منهم على أكثر مما دفعه إلى أهليهم، إن موقف اليازوري في هذه العملية يبرر ما قاله عبـــد اللطيـــف البغدادي من أنه"كان وزيراً ظالماً"، ويمكن أن نستخلص من عبارة التجاني الأخيرة أن ارتحال الهلاليين في هذه المرة كان في أعداد أكبر من سابقتها، أي ما يزيد على (٣٠٠٠) رجل.

تلك كانت مقدمات غزو إفريقيا على يد بني هلال وبني سليم، ولم يتطلـــع هؤلاء إلى الاستيلاء على الحكم في إفريقيا، واكتفوا بالعيش في الصحاري، فأقـــام

بنو سليم في صحراء طرابلس، وبنو هلال في صحاري تونس، ومع هذا يمكننا أن نقول: إن ارتحال بني هلال إلى إفريقية لم يكن كاملا، فقد ظل عدد كبير منهم في مصر حيث سكنوا الحوف الشرقي، وفي الصعيد الأعلى حيث كـــان مـــنهم عـــدة بطون.

وفي هذه السنة (٤٤٢هـــ-١٠٥٠م) التي أعطى فيها اليازوري الأمر لبني هلال وبني سليم لتعدية النيل للتوجه إلى إفريقية، كانت هنـــاك مجموعتـــان مـــن مجموعات البدو تقلق بال وزير المستنصر، فمن جهة، فإن الشغب الـــذي أحدثـــه عربان الشام قد أصبح عبئا ثقيلا على حكام هذه المنطقة؛ حيث كانت سلطة الخليفة الفاطمي ونفوذه دائما مهددة من طرف بني مرداس؛ وحدث كـــذلك أن ثـــار بـــدو البحيرة ثورة عارمة من جهة أخرى، وكان كل هذا يتطلب من الـــوزير التـــدخل السريع، وتطبيقا لمنهجه المفضل راح اليازوري يبحث عن عـــلاج أحـــد هـــاتين المشكلتين في الحل الذي سيجده لفض المشكلة الأخرى. فقد كانـــت منطقـــة غـــزة بالشام يسكنها بدو رحل وآخرون ذوو إقامة ثابتة، وكانت القبائل تعـــادي بعـــضها البعض، فقد حدث لبني سنبس الذين كانوا يقطنون في الداروم[1]، بـــالقرب مـــن غزة، إن دخلوا في فترة من فترات عدم الاستقرار، ولم يرَ اليازوري بدا من القيام بعمل يخفف العبء عن والي غزة ويتيح له مراقبتهم عن كثب دون إلحاق الضرر بالسلطة الفاطمية، فقام بدعوتهم إلى الحضور إلى مصر، ولقد دخل اليازوري فـــي معارك متتالية ضد البدو أولا في البحيرة التي كان يسكنها بنو قرة الذين أغـــاروا على الإسكندرية وما جاورها، فأرسل اليازوري إليهم جيشه فقتل منهم عددا كبيرا وفر الباقون إلي برقة.

وبعد أن قتل الخليفة المستنصر وزيره اليازوري فـــي ســـنة (٤٥٠)هـــ، استفحل أمر الاضطرابات والمنازعات في مصر بصورة لم يسبق لها مثيـــل مـــن

---

[1] داروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر. معجم البلدان، ٢/ ٥٢٥.

قبل، وشكل البدو فيها طرفا مباشرا وغير مباشر كما حدث أيام ناصر الدولة بن حمدان (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) حيث وقعت"الشدة الكبري"في مصر، ومحاولة هذا الأخير لاستغلالها من أجل التسلط على مصر، وبعد قتل ابن حمدان على يد اليدجوز وأعوانه، خشي المستنصر على نفسه منهم، فقام باستدعاء والي دمشق بدر الجمالي لفرض النظام ووضع حد لمناوشات البدو، ولقد واجه الجمالي بالفعل عام ٤٦٩ هـ عدة حركات تمرد وعصيان من البدو في طوخ؛ حيث تمردت قبائل جهينة والثعالبة والجعافرة، وهزمهم بدر الجمالي وصادر ممتلكاتهم، وفي أسوان، حاول بنو الكنز إنشاء إمارة عربية، فقمعهم بدر الجمالي وقتل رئيسهم كنز الدولة محمد، وأخيراً، ثارت قبائل سليم وفزارة في سنة (٤٦٩)هـ ضد بدر الجمالي، الذي سارع إلي محاربتهم، فقتل منهم عدداً كبيراً، واضطر الباقون إلي الفرار إلي ناحية برقة، ثم ما فتئت القدرة العسكرية لبدر الجمالي تتعاظم ضد البدو في مصر، حيث بدأ انفراط عقد السلطة الفاطمية، ولكن يبدو أن البدو مع ذلك كانوا قد تمكنوا من التحرر من سلطة الدولة وأصبحت كل قبيلة تسيطر على منطقة نفوذها في البلاد، وبعد وفاة الخليفة المستنصر في سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٥م) تم اختيار ابنه المستعلي للخلافة، بعد تدخل الوزير الفضل وبمساندته، وذلك على حساب الابن الآخر للمستنصر نزار، الذي لجأ إلى عربان مصر للحصول على حقه في الخلافة، فسارع الوزير الأفضل إلى ضم العربان إلى صفوفه لإضعاف نزار ومحاربة أعوانه الذين تمكنوا مع ذلك من قتل الخليفة الآمر (٤٩٥هـ-٥٢٤هـ/١١٠١م-١١٣٠م)، الذي خلفه الخليفة المستعلي، وكان الخليفة الآمر هذا هو أول خليفة يقع في حب إحدى البدويات من قبيلة طيئ ويتزوجها، ولكن هذه البدوية التي اعتادت حياة الحرية قد كرهت الانغلاق على نفسها داخل قصر الخليفة، فما كان من الآمر إلا أن شيد لها في الروضة براحاً فسيحاً تحيطه المروج وأطلق عليه اسم الهودج، ورغم ذلك فقد كانت البدوية الجميلة تحب ابن عمها ابن ميَّاح، وكانا يلتقيان بهذا الهودج خفية، وهو الأمر الذي تغنى به الشعراء في قصائدهم وأشعارهم.

أما الخليفة الحافظ (٥٢٥هـ-٥٤٤هـ)، فقد كان عليه أن يواجه قبيلة لواتة في البحيرة عام (٥٣١)هـ، وأمر واليه طلائع بن رزيك بمحاربتهم وقمع عصيانهم، وفي عام (٥٤٣)هـ، اضطر الحافظ إلى مهادنة لواتة ورشوتهم بمبالغ ضخمة لقتل من ادعى بأنه ابن نزار بعد أن لجأ إليهم لقتل وطلب معونتهم، ولكنهم قبلوا المال وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى الخليفة الحافظ.

واستمر الحال على هذا المنوال أيام الخليفة الظافر (٥٤٤هـ - ٥٤٩هـ)، حيث قام بتجنيد البدو وتسخيرهم لقمع حركات التمرد والعصيان في أنحاء البلاد وانتقل هذا الأمر، وفيآخر عصر الفاطميين الخليفة العاضد (٥٥٥هـ- ٥٦٧هـ)، إلى كبار الشخصيات التي كانت تتنافس على الوزارة مثل شاور السعدي وضرغام، وكانت هذه الأحداث هي الأخيرة في تاريخ الفاطميين في مصر، ولم يعد بدو مصر يحكمون برؤساء من قرابة عصبهم، وحولت معاركهم مع السلطة إلى مواجهات عنيفة بدلا من كونها شأناً عائلياً.